

الثلاثاء 01-01-2008

123- "المنتدى" والنص البشري: من منظور تطوري

لم يعد هناك داع أن أعيد أني لم أكن أتصور حين بدأت هذه النشرة اليومية أول سبتمبر 2007 أنها ستستمر إلى الآن، ولن أعيد أيضا الإشارة إلى ما أفادته لي هذه الورقة الرائعة شخصيا حين ساعدتني في هذه السن أن اكتشف ما عندي وما ليس عندي، ما قلته... وما كنت أتمنى أن أقوله، وغير ذلك مما كررت حتى أملتت، أما الفضل الذي لم أتوقعه أبدا فهو أن تكون هذه النشرة سببا في إنشاء هذا المنتدى عن طريق الشبكة العربية للعلوم النفسية لتقديم فكرى الأحداث عن الانسان والتطور، وهو ما عبر عنه الابن د. جمال ترك بقوله

"... قراءته اليومية للنص البشري في سوائه واضطرابه من منظور تطوري"

بأمانة شديدة، أنا لم أكن أحلم أن تصل خلاصة جهدى طوال عمري إلى من يستطيع أن يجمعها هكذا في عشر كلمات.

حتى أكون عند حسن ظن هذا الابن الواعى المثابر، وجدت نفسى ملزما بأن اقدم ما يفسر هذه الكلمات العشرة... مع بداية افتتاح "المنتدى".

اخترت أن أفعل ذلك من خلال نظرة لتاريخ تطور هذا الفكر، ملتزما بما ثبت مسجلا منذ البداية، مع التعريف بالجمعية الطموح التي لم تُعرف إلا من خلال مجلتها لأسباب أنا مسئول عنها، وذلك بأن أقتطع مقتطفات دالة من هذه المجلة "الانسان والتطور" لتوضيح هذا الفكر التطوري بدءا من افتتاحية أول عدد (يناير 1980) وانتهاء بآخر عدد (ابريل/ يوليو 2000) مع الالتزام بنفس الكلمات التي كتبت في حينها، بعد حذف بعض التفاصيل والتكرار، ووضع نقط بدلا منها، وأيضا بعد إضافة بعض الكلمات الشارحة، أو للمتابعة، ووضعها بن قوسين بينط أسود.

كل هذا هو محاولة شرح نص ما قاله جمال:

"...قراءته للنص البشري في سوائه واضطرابه من منظور تطوري"

ما أهمل لغتنا العربية، وما أروع الأمل في أن تلحقها

ثقافتنا المعاصرة ومن ثم احتمال إسهامنا في إضافة ما إلى مسيرة إنسان العصر وحضارته.

إن إعادة نشر ما التزمنا به وما أميلنا فيه منذ 28 عاماً، هو مجرد تذكرة بوضوح اتجاه السهم، مع اختلاف الأدوات ورحابة الفرصة، واتساع الحال.

أولاً: من افتتاحية العدد الأول

عدد يناير 1980

... باسم العدل الحق العليم، باسم الإنسان المصرى (والعربي) العنيد، باسم التطور الختمى يقف على قمة هرمه الإنسان الساعى لوجه الحق سبحانه وتعالى، باسم الحقيقة التى تفرض نفسها فى دورات حتمية مهما طال الزمن وطغت قيم الزيف، واختفى بريق التطور النابض الغائر الأكيد، باسم كل ذلك وما دونه وما بعده، نفتح هذه الصفحة من صفحات التاريخ، بمجرد أن سمحت لنا إمكانياتنا (ثم إمكانيات الشبكة العربية للعلوم النفسية) المتواضعة بفتحها .. آملين أن نخط على جدار الزمن أثراً يبقى بعدنا، يعلن بعض معالم محاولات إنسان العصر المقيم على هذه البقعة المباركة من أرض الله أن يكون إنساناً كما كرمه خالقه.

.....

كنا (ومازلنا) نحس أننا لابد أن نوصل صوتنا إلى الرجل العادي، والمثقف غير المتخصص، والزميل المتخصص على حد سواء، نبليغه بعض ما نعيشه من خلال معاناتنا الحضارية التى احتدت من خلال مواجهتنا لجوهر الإنسان إذ يتعزى فى أزمة تمزق كيانه وتناثر تركيبه، تلك الأزمة التى تسمى مرضاً نفسياً أو عقلياً وهى لا تعدو أن تكون من مظاهر مضاعفات مسيرة التطور الحتمية.

ولا يخفى على أحد ما وصلت إليه "الكلمة" فى عصرنا هذا من امتهان لكثرة ماتداولها غير أهلها، ولكثرة ما تركها أهلها بلا رعاية أو قدسية، حتى أصبحت وظيفتها الأولى هى ملء وقت الفراغ بأصوات مسلية أو لاهية، أو تسويد بياض الورق بأشكال هى فى واقع الحال "ديكورات" العقل المعاصر لا أكثر ولا أقل، ولم يخف هذا علينا حين قفز التساؤل المتحدى يقول: هل نحن فى حاجة إلى مزيد من الكلمات على الورق (والنت)؟

.....

وبتعبير آخر:

هل الكلمة هى التى تصنع الواقع وتؤكد الفعل،

أم أنها ليست إلا تسجيلاً للواقع وتابعا للفعل؟؟

كنا - ومازلنا - نميل إلى الرأى الثانى رغم صعوبته، ذلك الرأى القائل بأن العمل أولاً، ومع هذا، فإن العجز عن الفعل الكافى، وعن الإنتاج الفعال (حالاً)، قد ألزمتنا

باتباع الطريق الأول جزئياً (أو مرحلياً)، ذلك الطريق الذى يحمل خطورة رص الحروف بلا جدوى، أو تسهيل مزيد من الاغتراب تحت دعوى قول (كلمة) الحق ..، وقد كان المرير المرحلى لإقدامنا على إصدار هذه المجلة (فالمنتدى 2008) هو الأمل القائل أن الكلمة القادرة الشريفة هي نور المسيرة البشرية، وأن وضعها على الورق (النت) هو أمانة تاريخية لا مهرب من التصدى لها، ذلك لأنها تحمل فكراً إذا لم نستطع أن نصل إلى تحقيقه، فإننا لابد تاركين معالمة لأجيال من بعدنا تحكم علينا، وتكمل ما قد عجزنا عنه.

الهدف والطريق:

لابد أن نحدد بتفصيل نسي الهدف من ظهور هذه المجلة (فالمنتدى 2008) ابتداءً، ونحسب أننا حرصنا على أن يكون هدفنا له ذاتيته التى تبرر هذه الخطوة

.....

.... حددنا هدفنا من واقع مباشر يقول:

"إننا فى مسيرتنا الحضارية نشارك إنسان العصر فى مواجهة أزمة وجود يكاد يتفرد بها عن أجداده، فعصرنا قد حطم حواجز كثيرة، وهز أصناماً راسخة، حتى اختل كيان الفرد العادى فى مسيرته اليومية، وانتقلت مشكلة الوجود من صوامع الذنبيين إلى الشارع، وبهذا أصبح الفرد العادى أكثر فأكثر طرفاً فاعلاً فى تحديد مصير الكافة، بما أتاح له التقدم من فرص زيادة الوعى والمساهمة فى إصدار القرار".

أما علامات المسيرة البشرية فهى واضحة صريحة ومتحفزة أيضاً تتحدى أى متعاض أو مناور معطل، ومن ذلك تحطم الحواجز فى أكثر من مجال:

* تحطمت الحواجز - كما أننا - بين الصفة المثقفة والرجل العادى قارىء الصحيفة اليومية.

* ثم تحطمت بين الأوطان بفضل ثورة الترانسيستور ثم الأقمار الصناعية (وشبكة/ شبكات التواصل المحلية والعالمية التى تتعمق امتداداً وحركية كل يوم).

* ثم تحطمت الحواجز بين الأجناس بفضل فشل التمييز العنصرى من المرحوم الفوهرر إلى السيد بيجين . (وإن كانت الأمور قد انتكست مؤخراً، سراً وعلانية منذ عودة المد العنصرى الأصولى ليخدم المال والقتل الجماعى الجديد 2008)

وكذلك تحطمت الحواجز بين العقائد بفضل فشل المذهبيين عند التطبيق الخرف المتشنج لمذاهبهم.

وكادت تتحطم الحواجز بين الطبقات بفضل تنافس الأنظمة المختلفة - اقتصادياً - فى الإسراع برشوة الغالبية المنتجة . حتى لو لم يصدق الراشون النية فى الاهتمام بتطوير الإنسان أو تعميق وعيه. (أو تأمين حياته أو العدل فى التعامل معه).

(هذا التوجه تراجع أيضا 2008 بعد أن تعمقلت الشركات المتوحشة العابرة، والمافيا، وتجار المخدرات ليصبحوا هم الحكام الحقيقيون للعالم، وراحوا يستقطبون المال يتراكم فوق قلوبهم حتى ماتت، على حساب أبسط حقوق عامة الناس، وأيضا اهتز هذا التوجه للتسامح العادل الذي كان مأمولا حول سنة 1980 ليتبين لنا كل يوم أنه قد حلت الأحضان المناقضة، والقبلات الباردة، محل جدية محاولة التعايش والإبداع "معا").

وأخيرا كادت تتحطم الحواجز بين الأديان بفضل سعة صدر المتدينين (واجتهاد المبدعين) على كل جانب (ولكن هذا أيضا لم يتماد كما كنا نأمل).

.....

...لا مفر من أن ينادى أى مواطن شريف فى أى بلد كان أنه "بلدى أوى بي، ... منها أبدأ .."، ثم يعم الخير الجميع"، أو أن يصر كل صاحب دين على الالتزام بتعاليم دينه (لكن) لصالح البشر جميعاً، ساعين إلى وجه الله من كل حذب وبكل لغة، وأن يصر كل صاحب مذهب على الدفاع عن وجهة نظره، والتعلم من فشل تطبيقها لا الإسراع بالتخلي عنها... (ومن ثم: فى الإسراع بالتعلم حتى من خصومه، أو "خاصة" من خصومه).

إنسان العصر مدعو - بالرغم منه على ما يبدو - إلى التعاون مع أخيه الإنسان فى كل مكان، بأقل قدر من التعصب، وأقل حماس واحتكار للعقيدة الخاصة، وبأكبر قدر من العمل واحترام اختلاف الطرق رغم توحيد الهدف (هذا لم يحدث خلال أكثر من ربع قرن حتى تاريخه -2008- بل ربما حدث العكس سرا وعلانية).

.....

وبعد

.... فهذه المجلة (فالنتدى 2008) ترجو أكثر مما تسمح به إمكانياتها،

إننا لنشعر أننا بهذا العمل المتواضع، وبقدر ما سننأبر ونواصل ونتعلم، ومن موقع أمتنا العريقة المنهكة، نستطيع أن نساهم فى الدعوة العالمية لتكريم الإنسان بإطلاق قدرات تطوره إلى الآفاق التى خلق لها، والتى تبدو أرحب بكثير من واقعه الخائف الحدود.

.... فهذه المجلة (فالنتدى 2008) لا تخرج للناس لتعطى فرعاً من فروع الطب حقاً أكبر من طاقته فى توجيه مسيرة الناس، ولا لتحمله مسئولية أوسع من مدى قدرته....

وهكذا نحاول - من واقع هذه المحدودية وتلك الآمال - أن ننقل، بصدور هذه المجلة (المنتدى 2008) إلى الناس - بادئين (من حيث نحن) ناطقين بلغتنا - بعض ما ينبغى أن يصلهم من معرفة بالإنسان .. معرفة قد تسهم فى إنارة بعض زوايا مشاكله المعاصرة ... ومن ثم فى تغيير الفرد فالمجتمع إلى الغاية التطورية المتزايدة فى الإشراق دائماً أبداً.

.....

ونحن بإصدار هذه المجلة (فالمنتدى 2008) نأمل... في إتاحة الفرصة لكل صاحب رأى أن يقول كلمته، حتى لو لم توافق جوهر اتجاهنا، ونحن نعلم بتواضع إمكانياتنا

.....

.....

ثانياً : مقتطفات محدودة من افتتاحية العدد الثاني

(ردا على تحذير الناقد الأديب علاء الديب من فرط الطموح الذى وصله من العدد الأول)

.... هذه المجلة (فالمنتدى 2008) هى ذات فكر محدد وهو الانطلاق من مسيرة تطور الانسان البيولوجية واعتبار المرض النفسى من مضاعفات هذه المسيرة، وليس جسماً غريباً ينبغى التخلص منه، ولكنه نشاز طارئ ينبغى إعادة تنظيم مكوناته، ومن خلال هذا الفكر المحدد هى تعلن قصور العلوم النفسية الحالية عن الوفاء بمطالبات إنسان العصر، وتعلن - كعينة محدودة غير ممثلة - أن هذا التخصص ليس تخصصاً احتكاريًا، وأن علم النفس مثلاً، كما ثبت فى النصف الثانى من هذا القرن (العشرين)، لم يوف بما وعدت بشائره فى النصف الأول من نفس القرن، وأن الطب النفسى باستغراقه فى مفهوم كيميائى تجزيئى للوجود البشرى يتخلى عن مسؤوليته تجاه كلية الانسان، وعليكم - وعلينا - أن نتوقف عند مضاعفات التطور (وصورتها فى تخصصنا هى المرض النفسى) نعيد دراستها من منطلقات أشمل دون أن يتركها بعض علمنا العاجز بأسلوبه الخافى، مع أنه قادر بانطلاقته المقبلة على ما هو أبعد وأروع من ذلك بكثير.

.....

.....

إن هذه الرؤية المحددة: ضعف إمكانيات التخصص، واعتبار المرض النفسى (من أهم مظاهر) مضاعفات مسيرة التطور (الضرورية)، فرضت علينا أن نطرق أبواباً بدت خارج نطاق تخصصنا، ذلك أن المريض يسبقنا إلى ذلك فهو الذى يطرق هذه الأبواب ابتداءً (هو يطرق هذه الأبواب جميعاً دون استثناء: قضايا الحرية، والرأى الآخر، والترف اللفظى، والاعتراب وشرف الكلمة، والإيمان، والدين، والالتزام، ومبادرة السلام، ومحنة الطب النفسى. (دون استثناء منأ).

.....

ثالثاً: وأخيراً: مقتطفات من العدد الأخير

"الانسان والتطور" ابريل 2000- يوليو 2001

فى هذه الفترة التى احتجنا فيها مؤخرًا، لن أحدها

مدعيًا الخجل، حدثت أمور كثيرة كثيرة، خطيرة خطيرة، بدت خطورتها أنه لا يصلح معها إلا أن نتوقف، حتى لو كان ذلك من قبيل اليأس الذي رفضنا الاستسلام له في أية لحظة منذ قررنا أن نقلها والسلام، "الكلمة"، ربما تجد يوما من هو أهل أن يجعلها فعلا يمشى على الأرض. نحن نحاول والله العظيم !! (ثم وجدت هذه الكلمة أهلها المنتدى 2008)

ننظر سويًا في بعض أحداث ما كان (حتى سنة 2001)

1- استشرت العولمة وكشفت عن وجهها حتى تبين بما لا يدع مجالًا للشك أنها أمركة رأسمالية، استعمارية، جديدة. رأسمالية متوحشة لم تعد تحتاج حتى أن تتخفى وراء تبرير أو تنظير. في نفس الوقت ظهرت حركات مقابلة، ليس لها أية قوة فاعلة إلا التذكرة بأن المسألة (مسألة الاستعمار المالي المعلوماتي العالمي) لن تمر سهلة إلا على حساب كل البشر، المتعلم، وغير المتعلم، ولا عزاء للديناصور.

الإرهاصات الشعبية عبر العالم (من سياتل حتى إيطاليا؟؟)، رغم عدم جدواها العملية، وخفوت صوتها، تصيح صيحة غريق معاند، يأبى أن يستسلم لموج الإعصار الهادر رغم كل شيء.

2 - وجدت العولمة أدواتها جاهزة فيما يعرف بثورة الاتصالات والمعلومات، إضافة إلى صك بعض المفاهيم المصاحبة، ثم التمداد في تقديس كلمات مفاهيم مُعادة كانت ومازالت ملتبسة (تستعمل بطريقة غامضة كلمات ذات سمعة حسنة مثل "حقوق الإنسان" و"الخرية" و"الشفافية"... الخ) إن سوء استعمال هذه المفاهيم البراقة لصالح الخطأ التمدادي الذي أشرنا إليه حالًا، أدى، ويؤدي إلى عدد من المضاعفات التي تتزايد باستمرار

.....
.....

الخطأ التطوري الذي يقع فيه الإنسان حاليًا هو أنه يعطى هذا الجزء الإلكتروني، والأشبه بالالكتروني المتضخم في اضطراد، أكثر من حقه، بل أكثر مما يستطيع أن يحيط به. هذا العملاق الإلكتروني هو أعجز من أن يحيط بتاريخ الإنسان الحيوي، ناهيك عن تاريخ الحياة، علما بأن هذا وذاك (تاريخ الحياة، وتاريخ الإنسان)، هو مائل حاليًا في خلابنا

.....
(ولكن أيضا دعونا نقول:)

إن الرفض المتشنج لهذه الإنجازات لن يترتب عليه إلا تأجيل خائب، ثم تبعية متأخرة،

أما الاستيعاب **للتمكن فالتجاوز**، فهو الأمل المنشود.

إن التأثير الذي أحدثه هذا الطوفان المعلوماتي هو أخطر من أن نعدده في هذه الافتتاحية، لكنه هو هو ما جعلنا

نعاود الصدور. (بالجملة، ثم ها نحن نستفيد منه هو هو في ظهور المنتدى 2008 امتدادا للمجلة)

.....

حدث أيضا خلال هذه الفترة أن طالت ذراع أمريكا طولاً قبيحاً، فأصبحت وصايتها فاجرة مكشوفة، وأصبحت مصداقيتها مهلهلة بالية، وأصبح غباؤها تكلساً مفضوحاً. امتدت الوصاية إلى الانفراد بتحديد من هم الأقليات، وما هي الديمقراطية، وما هي الحرية، وما هي الحقوق، وما هي الواجبات، بل ما هي الأخلاق... (وربما: ما هو الدين الصحيح الوحيد!!) إلخ

وبعد

فهل يحقق هذا المنتدى 2008 ما تصورنا أننا عجزنا عن تحقيقه برغم كل ما حاولنا؟!

يارب سهل.

ملحق عن معالم باكرة لـ:

جمعية الطب النفسي التطوري والعمل الجماعي

- نشأت هذه الجمعية هادفة الإسهام في تنظيم نشاط حضارى ضروري لمرحلة تطور الإنسان المعاصر بادئين بالإنسان المصرى (إلى الإنسان العربى إلى الإنسان عامة)
- سجلت برقم 2546 بتاريخ 1979/01/24 تحت اسم جمعية الطب النفسي التطورى والعمل الجماعى.
- جاءت إضافة "العمل الجماعى" لفتح الباب أمام غير المتخصص للإسهام بما عنده.
- تهدف الجمعية إلى البحث فى ماهية الإنسان (ككل) من خلال محاولة الإسهام فى إعادة تنظيم أكداى المعلومات الجزئية الأمينة المتاحة وتبدأ فى هذا المبحث من مدخل العلوم النفسية والطب النفسى خاصة، وتهتم بالخبرات المباشرة لكل عقل بشرى قادر على المعاشة والتعبير فالصيغة.
- تهدف الجمعية إلى التوعية بضرورة تنمية قدرات الإنسان، رعاية وتحريرا من خلال فتح الأبواب لكل من يهمه الأمر، ويقدر على الإسهام، فى مجالات التفكير والعمل جميعا.
- تحاول هذه الجمعية - على تواضع إمكاناتها- أن تكمل نشاط جمعيات شقيقة أكبر وأعرق.
- اقتصر نشاط الجمعية - للأسف - على إصدار مجلة "الإنسان والتطور" منذ يناير 1980 حتى يوليو 2001، وعلى استمرار الندوة الثقافية شهرياً (كانت قد بدأت قبل تسجيل الجمعية منذ أكتوبر 1973)، ثم الندوة العلمية الشهرية منذ ابريل 1992، بالاشتراك مع مستشفى المجتمع العلاجى "دار المقطم للصححة النفسية"، ثم نشر بعض كتب مؤسسيها على حسابها أحيانا.